النثر والقومية العربية

وثبة التحرر في أدبنا الحديث

بقلم محمود تيمور

نحن المخضرمين الذين عشنا في جيلين ، سابق ولاحق، لا يفوتنا ان فكرة القومية العربية ، وهي دعوة الساعة، كان لها بالامس صوت جهير .

بيد أن هذه القومية العربية لم تكن لها دلالة مختمرة في اذهان الكتاب ، ولم تكن مستبينة المعالم فيما تجري به الاقلام .

كنا مضطربين في امرها اشد الاضطراب ، مختلفين فيها كل اختلاف ، يتعصب لها منا فريق ، ويثور عليها فريق آخرون ، وكان المتعصبون لها والثائرون عليها سواء في التطرف او في الشطط والاعتساف ، وفقا لمقتضيات وملابسات حاقت بالامة العربية في تلك الايام .

المتعصبون للقومية العربية كانوا يتمثلونها لياذاً بالماضي، واعتزازا بالسلف ، فهم ينشدون للكتاب ان يرجعوا الى العصور الاولى ، ويؤثرون للادباء ان يحيوا في اجواء العهود الخوالي ويأبون على المفكرين ان يسلس قيادهم لاتجاهات حديثة اسفرت عنها الحضارة العصرية في ميدانها الثقافي.

والثائرون على القومية العربية كانوا يشنونها حملة على كل قديم في التفكير والتعبير ، ويعتدونها عقبة في طريق التطور والتقدم ، ولم يسلم من حملتهم تراث العروبة في فنون ادبها وفي الوان ثقافتها بل في كثير من دعواتها الروحية الموصولة بالعقيدة والدين .

وتنابز الفريقان بالالقاب ، فريق المحافظين ، وفريق المجددين ، لكل منهما زاوية ينظر اليها ولا يعدوها ، ولكل منهما وجهة هو موليها ، فان قلنا انهما كانا كلاهما على خطأ فلسنا على خطأ ، وان قلنا انهما كانا كلاهما على صواب فلسنا نجانب الصواب .

اولئك المحافظون آمنوا بالقومية العربية ، فأقاموا من انفسهم سدنة لها ، متعلقين بأستارها يتمثل ايمانهم في الاستمساك بالتراث العربي القديم ، وفي الاستحياء لاساليبه ومناهج ادبه ، وتأنس نفوسهم باحلام ماضية ، وبما يزدان به من مفاخر وامجاد . وعذرهم في ذلك ان المجتمع العربي كانت تغزوه قوى اجنبية في شتى مناحي حياته ، ومن ورائها مظاهر حضارة عصرية ولوامع فكر جديد . فأشفق المحافظون على الامة العربية ان يطوح بها التيار الجارف ، حتى لا تتماسك ولا يبقى لها من كيان ، ولم يستطيعوا الا ان يهربوا من واقعهم الذي يحاصرهم من كل صوب ، هذا الواقع الملتبس الذي يباعد بينهم وبين عروبة يعتزون بها اكبر اعتزاز.

وهؤلاء المجددون ارادوا للامم العربية حياة غير حياتها المتخلفة ، فانبعثوا يمزقون عنها الغاف ماضيها الذي هو اشبه بأحلام النيام ، ويحطمون ما يغل عقولها من قيود مانعة من التحرر والانطلاق ، ويفتحون العيون على النور الجديد في آفاق الفكر والمعرفة .

ومن ثم نشأت الدعوات الادبية في كل امة عربية الى ابراز الشخصية ، وتنوير الوعي ، وتجديد الروح . ولم يكن للمجددين بد من اصطناع خطة الهدم ، لكي يقوم على الانقاض بناء مكين.

لبثت القومية العربية على هذا النحو ، بين اشياع المحافظة واشياع التجديد مثار تردد ونزاع ،بل مدار تشكك وارتياب، وفي ادب الجيل الماضي تعبير صادق عن هذا التردد والنزاع او التشكك والارتياب ، سواء في ذلك الكتاب المحافظون والكتاب المجددون .

ولعل هذه المرحلة كانت مرحلة طبيعية من مراحل النهوض القومي ، وطورا لا غناء عنه من اطوار تبلور الفكر العربي . فقد جاهد المحافظون في سبيل احياء العروبة وتزكيته واقرار الايمان به في النفوس ، وعمل المجددون على انضاج الوعي العربي وتبصيره والنفوذ به الى فهم موقفه من الحياة التي يحياها ، ومن المجتمع الانساني الذي يعيش فيه .

وفي يومنا الحاضر اتيح للقومية العربية ان تستقبل طورا حاسما من اطوار حياتها ، وتجد لها صيغة جديدة لا مجال فيها لتعصب فريق وثورة فريق آخرين .

لم تعد القومية العربية حلم نائم على رمال الصحراء ، ولا اهتزازا لبكاء الدمن والاطلال ، ولا عويلا على مجد كان في غابر الزمان .

القومية العربية اليوم يقظة لعمل ، وسعي الى هدف ، وهي تفاؤل بغد ، وايمان بمستقبل وانبعاث الى امام ، وهي نزعة موحدة الى الحرية والعزة وتقويم الشخصية في هذا المعترك العالمي الذي يحف بنا من كل جانب .

ولعل ادق تعريف لهذه القومية في مضمونها الاصيل انها ـ كما قال استاذ الجيل« احمد لطفي السيد » ـ

« رابطة بين امم اتسعت بينها دائرة المشابهات ، وضاقت دائرة الفروق » .

فهذه الرابطة تجمعنا اليوم حول دعوة فكرية عميقة ، وخطوة تحريرية واسعة ، وكفاح انساني صميم .

نريد اليوم ان يكون لنا فكر نابع من عقولنا ومن وجداننا ، وان تكون لنا بصيرة خاصة بالحياة من حولنا ، فنتحرر في التفكير والتعبير ، ولا يكون علينا من سلطان في التأثر والتأثير ، نؤمن بأنفسنا ، فنفيض عليها عزما وقوة ، ونمارس استجابتنا الواعية لكل ما في الافاق من هواء ونور .

حسبنا من فكرة القومية العربية انها حرب على الضعف والاستكانة ، حرب على التشكيك في الشخصية الجديرة بالاستقلال والتوثب ، وانها ثورة على العبودية والتطامن لسلطان الاجنبي ، ثورة على الوقوف في هذا المعترك العالمي موقف التضاؤل والتخاذل ، وانها رمز في المجتمع العربي للالم الباعث على اليقظة والامل الدافع الى الكفاح .

لئن كان لكل عصر نبوته المقدسة ، ان القومية العربية لهي نبوة هذا العصر في مجتمعنا العربي ، ورسالة هذه النبوة هي تجميع القوة ، وتكتيل الجبهة ، والانطلاق بالطاقة البشرية في كيان المجتمع العربي نحو كسب الحياة .

وان كتاب العرب في اعناقهم امانة ، هي ان يكونوا حواريين لتلك النبوة الصادقة ، يزكونها بأقلامهم ، وينفخون فيها من ارواحهم ، ويعملون على ان تكتمل لها اسباب النماء والازدهار .

يشهد التاريخ بان التطورات الكبيرة في الحياة الادبية رهينة بالتطورات السياسية البعيدة المدى ، فالادب يؤثر في هذه التطورات ويتأثر بها في آن واحد والمجتمع العربي تحت راية القومية العربية يستشرف لبعث سياسي يستكمل به حرياته ومشخصاته ، فلا معدى للادب عن ان يستجيب لهذا البعث كل استجابة ، وان يواكبه فيما يهدف اليه من اغراض جسام .

تلك هي الاقلام تصابحنا وتماسينا بانتاج ادبي ترتسم فيه وثبة التحرر ، فقد امسكت هذه الاقلام عن التعلق بأذيال الموضوعات التجريدية ، والوجدانيات الحالمة ، واقبلت على تصوير الروح الجديدة التي تتمثل فيها اليقظة والعمل والكفاح . وانما انصرف حملة الاقلام الى هذا الجد في التصوير الواقعي لانهم وجدوا انفسهم امام واقع اجتماعي قوي يرج النفوس ويملأ الاذهان ، لا كما كان اسلافهم بالامس يعيشون في واقع هزيل لا يحدوهم الى التعبير والتصوير .

ومهما يكن من جدال النقاد في ان يكون الادب هادفا او غير هادف ، ملتزما او غير ملتزم ، مجندا او غير مجند ، فما احسب الكاتب العربي في هذه الفترة من زمنه يستطيع ان يغفل الاحداث التي تتخذ لها اليوم شعار القومية العربية ، فان هذه الاحداث تهز كيان كل عربي ، وتتغلغل في صميم كل بيئة عربية ، وان الكاتب ليستهين بأمانة القلم في يده اذا هو لم يتسمع لمختلف الهتافات والمناجيات التي تضطرم في ذلك المجتمع العربي ، واذا هو لم يلتقطها ولم يبث فيها من ذوب نفسه ومن فيض روحه ما يجعلها مدادا للفكر الجديد ، وكيف يكون الكاتب مخلصا في استيحاء الحياة من حوله ان صمت اذنه دون انبعاث قومي في مجتمع كبير يعيش بين ظهرانيه .

ما اهون ان يكون الاديب معدودا من اهل عصره ، بتاريخ ميلاده ، لا بما يحمل ادبه من معالم تضعه حيث وضعته الايام من احداث وطنه في ذلك التاريخ .

لسنا نبغي ان يفرض الكاتب على نفسه شيئا ، ولسنا نعني ان يتخذ الكاتب من قلمه يوما يعلو به صوت مسوق اليه ، محمول عليه . فذلك هو التكلف الذي لا جدوى فيه ، وذلك هو الافتعال الذي نأباه . وانما الذي نبغيه ان يرهف الكاتب حسه ، ويفسح من نفسه مجالا تتجاوب فيه اصداء الحركة القومية ، فانه خليق ان ينتفض ويستشعر ، وان يتوافر له الانفعال القوي فلا تلبث نفثات فكره وروحه ان تذكي الجمرات التي تومض تحت الرماد .

ربما آثر الاديب الا يربط بين فنه وبين تيارات تتناوح من حوله اذ يؤمن بأن العمل الادبي اذا ارتبط بهذه التيارات نقص حظه من الفن ، وقصر عمره في حساب الزمن ، وفاته الخلود الذي يتاح للاعمال الفنية الخالصة غير المقترنة بملابسات عابرة في حياة الامم وكفاح الشعوب .

ولكن الحق ان الاديب اذا عمق حسه ، وصدق استلهامه ، وآمن بما يجري به قلمه لم يستعص عليه ان يكون فنه قويا خالدا او ان تناول احداث العصور ، وعبر عن ملابسات الجيل ، وانصاع للتيارات العارمة التي تمر بالمجتمع .

ومن الحق ايضا ان المجد العربي اذا عقد بناصيه الاديب الخالص في فنه للحياة الانسانية المجردة فانه يعقد كذلك بناصية اديب يجند ادبه لهدف قومي ، ليكسبه به جهارة وقوة وحيوية ، فقد لمع في الاداب العامة ، ادب الكفاح الشعبي ، وبقي على الزمن بما فيه من روائع وعيون ، وكتب الخلود لاصحابه بين الادباء ، كما كتب الخلود لهم بين قادة النهضات .

واني لاذكر هنا اديبا عاش في عصر الثورة العرابية ، وجند ادبه في معسكر الوطنية المصرية لذلك العصر ، هو السيد عبد الله نديم ، فقد اجاد قلمه لونا من ادب الكفاح ادى مهمته في حينه احسن اداء ، ولربما عز علينا ان نتلمس فيما انتهى الينا من آثار « النديم » في ادبه الكفاحي ما يصعد به الى قمة الفن ، ولكنه استحق التمجيد والخلود .

واذا طاب لنا ان نهتف بحرية الاديب العربي فيما يجري به قلمه ، وفيما تضطرم به نفسه وان ننشد له طلاقة الطائر في الافق ، فعلينا ان نهتف كذلك بالرسالة الانسانية الملقاة على عاتق الاديب الحر ، رسالة الاحساس بالحياة التي يحياها ، والتعمق فيها ، وتزكية ما يلتمع في مجتمعه من مثل رفيعة تدعو الى حرية وحق وخير وسلام ، والقومية العربية التي تعمر جوانح المجتمع العربي اليوم ليست الا مثلا انسانيا رفيعا ، فهي موجة من موجات التقدم البشري ، تدعو الى الايمان بالنفس والى حرية العمل للخير والحق والسلام .

محمود تيمور